العودة

قصة بقلم وليم ساروبان

ترجمة سمير كريم

راح يفكر ـ هذا الوادي ، كل هذه البلدة بين الجبال هي لي ، هي موطني ، هي المكان الذي احلم به ، وكل شيء على ما كان ، ان شيئا لم يتغير ، فرذاذ الماء ما زال يندفع في دوائر فوق مروج العشب الاخضر ـ يالها من موطن عريق طيب هذه المدينة ، في بساطتها وواقعيتها.

شعر بالسرور ـ اذ كان يمشي في شارع (آلفن) ـ لعودته لموطنه ثانية . كان كل شيء رائعا ، منطلقا ، جميلا ، رائحة الارض ، والاطعمة المطبوخة ، والدخان ، وهواء الصيف المنعش في الوادي المفعم بالنباتات النامية ، والاعناب الناضجة ، والخوخ ، والتكعيبة المزهرة تتدلى في جمال كل شيء كما كان دائما . وتنفس بعمق ، مستنشقا رائحة الوطن في اعماق رئتيه ، هو يبتسم في داخله . الجو كان حارا . انه لم يحس ابدا هذه الاحساسات نحو الارض بمثل تلك الرقة والنصوع منذ سنوات الان هاهي السعادة يتنفسها . لقد شحذ نقاء الجو هذه اللحظة حتى انه شعر وهو يمشي بعظمة ان يوجد الانسان ، ان يمتلك شيئا ، ان يكون له صورة وعاطفة وعقل ، شعر بروعة مجرد ان يكون الانسان عائشا على الارض .

ومر الماء بخاطره اذ سمع رش الماء الهادىء من الرذاذ المتساقط على العشب ، لان يذوق المرء ماء الوطن ، ماء الوادي الرطب الملآن لان يحس المرء بذلك العطش البسيط ، وهذا الماء الكثيف الذي يرويه ان هذا لهو تماما نقاء الحياة . ورأى رجلا عجوزا يمسك خرطوما فوق بعض نباتات « الخبيزة » ، ودفعه عطشه نحو الرجل .

وقال بهدوء : ـ مساء الخير ، هل لي في شربة ماء ؟

والتفت العجوز ببطء ، وظله الكبير معكوس على البيت ، لينظر في وجه الشاب متحيرا مبتهجا . وقال : « اهلا بك هنا » . ثم وضع الخرطوم بين يدي الشاب . وقال العجوز :

ـ ماء قوي لذيذ ، ماء وادي سان جوكين ، انه الذ ماء على ماأظن . ذلك الماء في « فريسكو » يسئمني ، فليس له أي طعم . وكذلك في لوس انجلوس ، تصور ، ان الماء هناك مذاقه يشبه زيت الخروع ، لا استطيع ان افهم كيف يواصل الناس الكثيرون حياتهم هناك عاما بعد عام.

وبينما كان العجوز يتكلم كان صاحبنا ينصت الى الماء المتساقط من الخرطوم الى الارض ، يتقافز بكثافة ، ونصوع ، ويغوص بسرعة داخل الارض .

وقال للعجوز : ـ لقد قلتها ، لقد قلتها ، ان ماءنا اروع ماء على الارض.

واحنى رأسه على الماء المندفع من الخرطوم وراح يشرب ، واذهله مذاق الماء الحلو الخصب ، وكان يفكر وهو يشرب ، ياالهي ـ ان هذا لشيء عظيم . واحس ببرودة الماء تسري في كيانه ، تنعشه وتبرده .ولما لهث نفسه رفع رأسه قائلا للعجوز : « اننا محظوظون جدا ان نكون سكان هذا الوادي » . ثم احنى رأسه على الماء مرة اخرى ، وراح ثانية يزدرد السائل المتدافع ضاحكا لنفسه في بهجة . كان يبدو كما لو لم يكن يستطيع ان ياخذ الكفاية منه في جسمه ، وكان كلما شرب حلا مذاق الماء ، وازداد رغبة في الشرب . ودهش العجوز فقال : لقد شربت حوالي دلوين . وكان مايزال يزدرد الماء اذ سمع العجوز يتكلم ، فرفع رأسه ثانية مجيبا : « اظن كذلك » .

« انه لاشك لذيذ المذاق » . ومسح فمه بمنديل ، وكان مايزال ممسكا بالخرطوم ، وما يزال يرغب في مزيد من الشرب . فكل الوادي كان في هذا الماء ، كل النقاء ، كل الاصالة ، كل الطيبة والبساطة والواقع .

لقد حييت الان . وقال العجوز : لابد انك كنت عطشا . كم مر من الوقت منذ شربت ، في مكان ما؟

واجاب : « عامين ، اقصد عامين منذ شربت من هذا الماء . لقد كنت بعيدا على سفر ، وعدت توا . لقد ولدت في هذا المكان ، هناك في شارع « ج » كنت في مدينة روسية ، انك تعرفها عبر طرق المحيط الهادي الجنوبي ، منذ عامين ، وها قد عدت توا . وهذا ايضا شيء رائع جدا ، دعني اخبرك عن العودة . انني احب هذا المكان . ولسوف احصل على عمل واستقر هنا .

ودلى رأسه الى الماء ثانية واخذ مزيدا من الجرعات العديدة ، ثم سلم الخرطوم للعجوز الذي قال : « لابد انك كنت عطشا » ، انني لم ار ابدا انسانا في اي مكان يشرب ماء بهذه الكثرة على دفعة واحدة... من المؤكد انه يبدو جميلا رؤيتك تجرع كل هذا الماء ..

وعاد يمشي في شارع آلفن . يدندن لنفسه والعجوز يحملق اليه .

« جميل ان يعود الانسان ـ وكان يفكر ـ » ان اكبر غلطة ارتكبتها هي عودتي بهذا الطريق .

كل شيء كان قد فعله خطأ ، وكان هذا العمل خطأ من اكبر الاخطاء. لقد جاء جنوبا من سان فرنسيسكو بغير ان يفكر اطلاقا في العودة الى الوطن ، لقد فكر في الذهاب بعيدا الى الجنوب حتى « موسيد » ويقف هناك فترة ، ثم يعود ، ولكن ـ مرة واحدة ـ وصل الى البلدة وكان ذلك شيئا كثيرا . كان رائعا وقوفه على الطريق في ملابسه المدنية ، مسافرا على قدميه .

لقد مرت به مدينة بعد اخرى ، وها هو هنا يمشي خلال شوارع موطنه في السابعة مساء . كان ذلك شيئا عظيما ، ومسليا ، والماء كان رائعا . لم يكن بعيدا عن المدينة ، عن البلدة نفسها ، واستطاع ان يرى واحدا او اثنين من البناءات العالية ، شركة الجاز ، ومبنى الكهرباء ، كلها مضاءة بانوار ملونة ، ومبنى اخر اضخم لم يكن قد راه من قبل . انه مبنى جديد . لقد انشاوه بينما كنت بعيدا ، ان الاشياء ينبغي ان تتزايد .

وتحول الى شارع فالتون وبدا يمشي داخل المدينة ، كانت تبدو ـ حيث كان يمشي ـ عظيمة . وبعيدة ، لطيفة وصغيرة ، انها مدينة اصيلة صغيرة وهادئة حقا . انها المكان الذي يمكن ان يعيش الانسان فيه ، ويستقر ويتزوج ، ويكون له بيت وغلمان وعمل ، وكل ما عدا ذلك . وكان هذا كل مايريده ، هواء الوادي والماء ، وواقع كل هذا المكان ، نقاء الحياة في الوادي ، وبساطة الناس .

وفي المدينة كان كل شيء كما هو : اسماء المحال ، والناس السائرون في الشوارع ، ومرور السيارات البطيء ، والصبية في عرباتهم يحاولون اختطاف الفتيات ، كلها كما كانت دائما ، ان شيئا لم يتغير . ورأى وجوها عرفها وهو صبي ، اناس لم يعرفهم باسمائهم . ثم رأى « توني روكا » رفيقه القديم ماشيا على الطريق في اتجاهه ، ورأى ان «توني» قد عرفه فتوقف عن المسير في انتظار حضور توني اليه ، وكانت مقابلة كانها في حلم ، غريبة ، لايمكن تصورها . كان يحلم بها كلاهما وهما يحاولان القفز من المدرسة ليذهبا الى السباحة ، او ليخرجا الى سوق البلدة ، او ليتسللا داخل دار السينما ، والان هاهو هنا ثانية ، هذا الرفيق الكبير ذو المشية الكسولة المتعبة والملامح الايطالية الاصيلة . كان امرا رائعا ، وكان مسرورا لانه ارتكب هذه الغلطة وعاد .

وتوقف عن السير في انتظار حضور توني اليه مبتسما في وجهه عاجزا عن الكلام ، وهز الصبيان يد كل منهما ، وشرع كل منهما يضرب الاخر في تاثر . وهما يضحكان عاليا وينشاتمان .

قال توني : « ايها المافون العجوز في اي جحيم كنت ؟

ولكم صديقه في بطنه وهو يضحك عاليا .

وقال هو : توني العجوز ، ايها السكير العتيق توني . يا الهي انه لجميل ان اراك ! لقد ظننت انك ربما تكون مت خلال هذه المدة . اي عمل ضخم فعلت ؟ وتفادى لطمة اخرى ، وضرب صديقه في صدره . واخذ يسب توني بالايطالية ، مستعملا كلمات كان توني قد علمه اياها منذ سنين مضت وتوني يرد عليه الشتائم بالروسية .

وقال اخيرا : « ينبغي ان اذهب الى البيت ، فالاهل لايعلمون انني هنا . لا بد ان اذهب لاراهم . انني اموت شوقا لرؤية شقيقي «بول» .

وتابع سيره في الطريق مبتسما لتوني ، ولسوف يكون لهما معا وقت كثير مرة اخرى ، سوف يذهبان للسباحة ثانية كما كانا يفعلان في صغرهما . وكان عظيما انه قد عاد . فكر وهو يمشي بجانب المحال ان يشتري هدية لامه ، فان هدية صغيرة ستسر السيدة العجوز . لكنه لم يكن يملك الا قدرا ضئيلا من النقود ، وكل الاشياء اللائقة كانت غالية « سوف اعود هنا بعد قليل » .

وتحول الى الغرب في شارع « توليز » مخترقا طرق الباسفيك ووصل الى شارع «ج» ثم اتجه الى الجنوب . دقائق قليلة وسيصبح في البيت ثانية ، امام البيت الصغير القديم ، وكل شيء كما كان دائما ، السيدة العجوز ، والاب العجوز ، واخواته الثلاث ، واخوه الصبي ، كلهم في البيت يعيشون حياتهم البسيطة .

رأى البيت من بعد حوالي قصبة ، وبدأ قلبه يخفق . شعر فجأة انه مريض وخائف ، انه قد نسي شيئا من المكان ، عن الحياة التي كرهها دائما ، شيئا ما بشعا ووضيعا . ولكنه تابع مسيره ، متباطئا كلما اصبح اقرب للبيت . لقد سقط السور ، ولكن احدا لم يرممه . وبدا له البيت فجاة شديد القبح ، وتعجب لماذا لم ينتقل العجوز الى منزل احسن في حي افضل . وحينما رأى البيت مرة اخرى ، واحس بكل واقعه العتيق عاودته كل كراهيته نحوه ، وبدا يشعر ثانية باشتياق لان يكون بعيدا عنه حيث لايمكن ان يراه . وبدا يحس ـ عندما شعر كما لو كان صبيا ـ بالكراهية العميقة الغامضة التي يكنها للمدينة كلها ، بزيفها ووضاعتها ، وغباء اهلها ، وفراغ عقولهم ، وبدا له انه لن يستطيع ان يعود لمثل هذا المكان .

الماء ـ نعم ـ لقد كان لذيذا ، كان رائعا ، لكن كانت هنالك اشياء اخرى . ومشى ببطء امام المنزل ، ناظرا اليه ، كما لو كان غريبا،شاعرا بانه غريب لاتربطه به صلة ولكنه كان مايزال يحس ان هذا بيته ، المكان الذي كان يحلم به ، المكان الذي عذبه اينما ذهب . وكان خائفا ان يخرج احد من المنزل ويراه ، لانه عرف انه لو شاهده احد فربما وجد نفسه يجري بعيدا . الا انه كان مايزال يريد ان يراهم جميعا ، ويجدهم امام عينيه ، ويحس بوجودهم تماما باجسامهم ، بل يريد ان يشمهم ، تلك الرائحة العتيقة الروسية لكن الامر كان فوق طاقته ، لقد بدا يحس بالكراهية لكل شيء في المدينة . وتابع مشيه ذاهبا الى الناصية . وهنالك وقف تحت مصباح الشارع ، حائرا مشمئزا ، يريد ان يرى شقيقه بول ، يريد ان يكلم الصبي ، ليكشف ما قد صار في عقله ، كيف تمهده في مثل هذا المكان ، وهو يحيا مثل هذه الحياة . لقد عرف كيف كان الامر بالنسبة له حينما كان في عمر شقيقه ، وتمنى لو استطاع ان يعطي اخاه نصيحة صغيرة ، كيف يتحاشى الاحساس بالرقابة والقبح بواسطة القراءة .

نسي انه لم ياكل منذ الافطار ، وانه كان يحلم شهورا عدة بان ياكل وجبة اخرى من طعام امه وهو جالس الى المائدة القديمة في المطبخ ناظرا اليها بوجهها المحمر الضخم ، وهي تنظر اليه في جد وصرامة،ولكن في حب ـ لكنه فقد شهيته وفكر انه يمكن ان ينتظر بالناصية ، فربما ترك اخوه البيت ليتنزه ، وربما يرى الصبي ويتحدث اليه . سوف يناديه « يا بول » وسيحدثه بالروسية .

وبدا يضايقه سكون الوادي وفقد هذا السكون هيبته لم يعد الا مجرد صورة للرقابة في الوادي .

وظل عاجزا عن الابتعاد عن البيت ، وكان يراه من الناصية ، ويعرف انه يريد ان يدخل ، ويصبح بين اهله ، جزءا من حياتهم ، كان يعلم ان هذا ما اراد ان يفعل منذ شهور ، ان يدق الباب ، ويعانق امه واخوته ويمشي على ارض البيت ، ويجلس على المقاعد القديمة ينام في فراشه، ويحدث اباه العجوز ، ويأكل على المائدة .

اما الان فان شيئا ما كان قد نسيه في بعاده ، شيء ما حقيقي ، ولكنه حقير في هذه الحياة ، قد عاوده سريعا فبدل كل شيء ، وغير مظهر البيت ومضمونه ، وكذلك المدينة ، والوادي كله ، فجعل كل هذا قبيحا، غير مقبول ، وجعله يرغب في الذهاب بعيدا بغير رجعة ، لم يكن ليستطيع ان يدخل البيت ثانية ، وان يتابع حياته التي كان قد تركها .

وفجاة اصبح في ممر البيت ، قافزا فوق السور ، ماشيا في الفناء. لقد زرعت امه الطماطم والفلفل ، وكانت رائحة النباتات النامية حادة لاسعة ، وكئيبة عليه . وكان هناك ضوء في المطبخ ، فتحرك نحوه في هدوء املا ان يرى بعضهم ، دون ان يراه احد ومشى ملتصقا بالبيت الى نافذة المطبخ ، وعندما نظر الى الداخل راى اصغر اخوته « مارتا» تغسل الصحون . ورأى المائدة القديمة والموقد القديم ، ومارتا ظهرها اليه وبدت له كل هذه الاشياء حزينة مؤسية حتى طفرت الدموع في عينيه ، وشعر بحاجته الى سيجار فحك عود الكبريت في نعل حذائه في هدوء ، وجذب نفسا من الدخان ، ناظرا الى شقيقته الصغرى في البيت القديم ، انها جزء من الرتابة . كان كل شيء يبدو هادئا جدا، واضحا جدا ، وحزينا بصورة مريعة ، لكنه تمنى لو دخلت امه المطبخ وكان يود ان يلقي عليها نظرة اخرى ، اراد ان يرى ما اذا كان غيابه قد غيرها كثيرا . كيف اصبحت تبدو ؟ اما زالت لها تلك النظرة العتيقة الحانقة ؟ واحس بالغضب على نفسه لانه لم يكن ابنا بارا ، لأنه لم يحاول ان يجعل امه سعيدة ، لكنه كان يعلم ان هذا مستحيل .

ورأى اخاه « بول » يدخل المطبخ ليشرب جرعة ماء ، وفي برهة شاء لو يصيح باسم الصبي ، بكل ماهو طيب فيه ، بكل حبه ، شاء لو ينبثق في وجه الصبي ، لكنه امسك نفسه ، وجذب نفسا عميقا من الدخان وهو يزم شفتيه . وبدا له انه قد افتقد الصبي في المطبخ ، حائرا حبيسا . وحينما نظر الى شقيقه بدا يصيح برفق هاتفا باسم المسيح .

ولم يعد يرغب في رؤية امه ، فسوف يغضب الى حد انه قد ياتي شيئا طائشا . ومشى في هدوء خلال الفناء ، متسلقا السور ، ثم قفز الى الممر . وراح يسير مبتعدا ، يعتمل في نفسه الاسى . وحينما صار بعيدا الى حد لم يعد فيه مسموعا بدا يشهق ، كان يحبهم بكل عواطفه، ولكنه كان يكره بشاعة حياتهم ورتابتها ، وشعر بنفسه يهرع بعيدا عن البيت وعن اهله ، صارخا بمرارة في ظلال الليل الساجي ، باكيا لانه لم يكن ثمة شيء يمكنه ان يقوم به ، شيء غير مجز .

ترجمة : سمير كرم

كتابان خطيران

عارنا في الجزائر — لجان بول سارتر

الجلادون — لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الآداب